بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿...وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾

[الأنبياء:٣٠]

﴿ ..... وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾

[الأنبياء: ٣٠]

هذا النص القرآنى المعجز جاء فى مطلع الربع الثانى من سورة الأنبياء وهى سورة مكية، وآياتها اثنتا عشرة ومائة بعد البسملة، ويدور محورها الرئيسى حول قضية العقيدة الإسلامية ومن ركائزها الإيمان بالله ربّا، وبملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والتوحيد الخالص لجلال الله - بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد. وقد سميت السورة بهذا الاسم لاستعراضها سير عدد كبير من أنبياء الله.

## عرض موجز لسورة الأنبياء

ابتدأت السورة الكريمة بالإشارة إلى غفلة الناس عن الحساب، وعللت تلك الغفلة بانصراف أغلب أهل الأرض عن الهداية الربانية التى أنزلها الله - تعالى - على عدد من الأنبياء والمرسلين، وأتمها، وأكملها، وحفظها فى القرآن الكريم، وفى سنة خاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين.

وضربت سورة الأنبياء مثلاً على ذلك بغفلة كفار قريش، الذين أنكروا نبوة ورسالة هذا الرسول الخاتم - وأمثالهم فى هذا الزمان كثير - واتهموه - شرفه الله تعالى - كما يتهمه كفار ومشركو اليوم - بالسحر، والهلوسة، والافتراء، والشعر، وطالبوه بعدد من المعجزات الحسية كالتى جاء بها سلفه من الأنبياء والمرسلين، ناسين أو متناسين كفر الكافرين بتلك السلسلة الطويلة من رسل الله وأنبيائه، على الرغم من تأييد الله لهم بالمعجزات، وناسين أو متناسين أن جميع هؤلاء الأنبياء والمرسلين كانوا بشراً مختارين، مما يدحض اعتراضهم على بشرية

خاتمهم ﷺ، وناسين أو متناسين أن الله - تعالى - قد أهلك المتقدمين من الكفار والمشركين، ومن الطغاة المتجبرين، فلم يعتبروا بهلاكهم حتى إذا فاجأتهم عقوبة من الله رفعوا أصواتهم بالاستغاثة والضراعة صاغرين، متذللين. . . !!

وأكدت الآيات فى سورة الأنبياء أنه لو أعرض أهل الأرض جميعًا عن طاعة خالقهم وعبادته، فإن الملائكة لا يستكبرون عن الخضوع الدائم لجلاله، ولا عن تسبيحه، وتمجيده، وحمده، ولا يملون ذلك أبدًا: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

واستشهدت سورة الأنبياء بالعديد من الآيات الكونية على عظمة الخالق - سبحانه وتعالى - فى إتقانه لصنعته، وعلى وحدانيته المطلقة فوق جميع خلقه، وعلى تنزيهه - سبحانه - عن الشريك، والشبيه، والصاحبة، والولد، وهو - تعالى - رب كل شىء ومليكه، ومن ينازعه فى سلطانه فجزاؤه جهنم وبئس المصير.

وتؤكد السورة الكريمة أن الموت حق على العباد، وأن الدنيا دار ابتلاء بالخير والشر، وأن جميع المخلوقين عائدون حتمًا إلى خالقهم.

وتواسى الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بأن جميع من سبقوه تاريخيًا من أنبياء الله ورسله قد لاقوا من كفار أقوامهم، وشراذم أممهم، وحثالات مجتمعاتهم مثل ما لاقى - ولا يزال يلاقى - من التكذيب والسخرية والاستهزاء، وقد نال السابقون من هؤلاء المكذبين نكالاً من الله فى الدنيا، ولهم فى الآخرة العذاب المقيم، وهو نفس جزاء المكذبين من بعد ذلك إلى أيامنا هذه وإلى يوم الدين، فالله - تعالى - يضع الموازين العادلة فلا تظلم نفس شيئًا. . . !!

واستعرضت سورة الأنبياء قصص عدد من هؤلاء المصطفين الأخيار، منهم موسى وهارون - عليهما السلام - وقد آتاهما الله - تعالى - التوراة نورًا وضياءً، وجعلها فارقة بين الحق والباطل، وتذكرة للمتقين: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

وتؤكد الآيات أن القرآن الكريم قد جاء من نفس المشكاة، وهو كتاب مبارك، أنزله الذى أنزل التوراة من قبل، فلا ينكره إلا ضال.

وممن ذَكَّرت بهم السورة من أنبياء الله ورسله : «أبو الأنبياء إبراهيم الخليل»، ولخصت حواره مع قومه من عبدة الأوثان، ودعوته إياهم إلى التوحيد الخالص، وتنجية الله ـ تعالى ـ له من كيدهم، وبعثه وابن أخيه لوطًا إلى أرض فلسطين المباركة، ووهبه ـ على الكبر ـ ذرية صالحة، وتنجية لوط من القرية التى كانت تعمل الخبائث، والتى دمرها الله ـ تعالى ـ تدميرًا.

وأضافت السورة الكريمة ذكر نوح عليه السلام وقصته مع قومه الذين كذبوه فأغرقهم الله ـ تعالى ـ ونجى نوحًا ومن آمن معه، وقصة كل من داود وسليمان، وما أكرمهما الله ـ تعالى ـ به من معجزات وكرامات، وقصة أيوب وما مسه من ضر وبلاء صبر عليه فكشفه الله ـ تعالى ـ عنه، وقصص كلّ من إسماعيل، وإدريس، وذى الكفل، الذين كانوا من أهل الإحسان والصبر، وقصة يونس ـ على نبينا وعليه وعلى أنبياء الله جميعًا من الله السلام ـ والحوت الذى التقمه، وتنجية الله ـ تعالى ـ له منه، وقصة زكريا عليه السلام وقد رزقه الله تعالى ـ على الكبر ـ ابنًا صالحًا، وقصة السيدة مريم البتول، وولادتها بمعجزة حقيقية لابنها عيسى ـ عليه وعليها من الله السلام ـ ومن هنا كانت تسمية هذه السورة المباركة باسم «سورة الأنبياء».

وبعد هذا السرد التاريخى المعجز يأتى القرار الإلهى الحاسم : ﴿ **إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ** ﴾ [الأنبياء : ٩٢].

وفيه من التأكيد على وحدة الرسالة السماوية، ووحدة هذه السلسلة الطويلة من الأنبياء والمرسلين، ما يدعم صدورها عن الإله الواحد الذى خلق الخلق، واصطفى منهم الأنبياء والمرسلين، وأوحى إليهم جميعًا بدينه القويم ـ الإسلام ـ الذى أنزله على فترة من الأنبياء والمرسلين (مائة وعشرين ألف نبى، اصطفى الله ـ تعالى ـ منهم ثلاثمائة وبضعة عشر رسولاً) وأكمله، وأتمه وحفظه فى الرسالة الخاتمة ـ القرآن الكريم ـ المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم

وعلى الرغم من هذه الحقيقة الواضحة وضوح الشمس فى وسط النهار فقد اختلف الناس فى أمر الدين، وأصبحوا فيه شيعًا متعارضين، والجميع راجعون إلى

الله ـ تعالى ـ ليحاسبهم، ويجازيهم على ما كانوا يعتقدون، وما كانوا يعملون. وقد أوضح الله ـ تعالى ـ للجميع، أن الذين أهلكوا فى الدنيا لكفرهم وشركهم وطغيانهم قد أدركوا ذلك بعد هلاكهم، وتمنوا العودة مرة أخرى إلى الحياة الدنيا ليتوبوا إلى الله، ويعودوا إلى طاعته وعبادته وتوحيده ولكن هيهات لهم أن يعودوا إلا عند قيام الساعة حين يبعث الخلق أجمعون.

وتتحدث الآيات فى سورة الأنبياء عن سد يأجوج ومأجوج، وعن الإشعار بقرب فتحه، وتدافع هذا الخلق للخروج منه، وانتشارهم، فى كل فج، وتزاحمهم على النزول من كل مرتفع، متسارعين للإفساد فى الأرض، وخروجهم من العلامات الكبرى للساعة، ومن نبوءات القرآن العظيم والرسول الخاتم ﷺ باقتراب وقتها . . . . ويومئذ يُرى الكافرون والمشركون وأبصارهم شاخصة من شدة الهول والفزع، وتصف الآيات جانبًا من مشاهد هذا اليوم العصيب، وتمايز بين موقف كل من المؤمنين والكافرين فيه.

وتؤكد السورة فى أواخرها أن الرسول الخاتم والنبى الخاتم ﷺ قد أرسله الله ـ تعالى ـ رحمة للعالمين، داعيًا الناس جميعًا إلى التوحيد الخالص لله الخالق، فإن تولوا فما عليه إلا أن يقول: قد أعلمتكم جميعًا بالحق، وأنذرتكم بما توعدون، ولا أدرى أقريب هو أم بعيد، وأخبرتكم بأن الله ـ تعالى ـ هو علام الغيوب، الذى لا يخفى عليه شىء، وأنه ـ تعالى ـ سوف يجازى كلاً بعمله، ولست أدرى إن كان إمهالكم لمزيد من البقاء فى الدنيا هو ابتلاء لكم أم فتنة.

وتختتم السورة الكريمة بهذا الدعاء الكريم على لسان خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ: ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١١٢].

أى: يا رب احكم بعدلك المطلق بينى وبين هؤلاء المكذبين بالحق الذى أرسلتنى به، وأنت المستعان على ما يصفون من الكفر والتكذيب، وبهذا التفويض لله ـ تعالى ـ والإستعانة به والضراعة إليه تختتم سورة الأنبياء.

## من الآيات الكونية فى سورة الأنبياء

فى مقام الاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة فى الخلق، وعلى وحدانية الخالق العظيم، أشارت سورة الأنبياء إلى عدد من الآيات الكونية التى يمكن إيجازها فيما يلى :

١ ـ التأكيد على أن خلق السماوات والأرض قد تم بالحق، أى بنظم فائقة الدقة والانتظام.

٢ ـ التلميح إلى أن وحدة البناء فى الخلق تؤكد وحدانية الخالق ـ سبحانه وتعالى.

٣ ـ الإشارة إلى أن السماوات والأرض كانتا رتقًا ففتقهما الله ـ تعالى.

٤ ـ التصريح بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد جعل من الماء كل شىء حى.

٥ ـ الإشارة إلى أن الله ـ تعالى ـ خلق الجبال، وجعلها رواسى للأرض، وجعل فيها فجاجًا سبلاً للناس، يسلكونها ويهتدون بها.

٦ ـ تأكيد أن الله ـ تعالى ـ قد جعل السماء سقفًا محفوظًا.

٧ ـ الإشارة إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس بتتابع كلٍّ من الليل والنهار وتبادلهما، وتأكيد جرى كلٍّ من الأرض والشمس والقمر فى مداراتها بالوصف القرآنى المعجز : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٣].

٨ ـ تأكيد حقيقة أن كل نفس ذائقة الموت.

٩ ـ الإشارة إلى أن الإنسان خلق من عجل.

١٠ ـ الإشارة إلى إنقاص الأرض من أطرافها فى مجاز معجز.

١١ ـ الإشارة إلى حتمية طى السماء كطى السجل للكتب، والعودة بالكون إلى هيئته الأولى ـ رتقًا متصلاً ـ قبل فتقه إلى السماوات والأرض الجدد.

ومن إعجاز القرآن الكريم أن تأتى الإشارة فيه إلى كيفية خلق الكون، وإلى كيفية إفنائه فى سورة واحدة، والإشارة إلى خلق كل شىء حى بين هذين الحدين.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة مستقلة، ولذلك فسوف أقصر حديثى هنا على النقطة الرابعة فقط من هذه القائمة والتى يقول فيها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾ وقبل الدخول إلى ذلك لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين فى شرح هذه الآية الكريمة.

## من أقوال المفسرين

**فى تفسير قوله ـ تعالى :**

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٠].

* ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ ما مختصره : «وقوله (وجعلنا من الماء كل شىء حى) أى أصل كل الأحياء، عن أبى هريرة قال، قلت : يا رسول الله إذا رأيتك طابت نفسى وقرت عينى، فأنبئنى عن كل شىء، فقال : «**كل شىء خلق من ماء**» قال : فأنبئنى بعمل إن عملت به دخلت الجنة، قال : «**أفش السلام، وأطب الكلام، وصل الأرحام، وقم بالليل والناس نيام، تدخل الجنة بسلام**»[1].

* وجاء فى تفسير الجلالين ـ رحمهما الله ـ ما مختصره : « ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ ﴾ النازل من السماء والنابع من الأرض ﴿ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ نبات وغيره، أى : فالماء سبب لحياته ﴿ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾ بتوحيدى؟».

* وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه : « فأما شطر الآية الثانى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ فيقرر كذلك حقيقة خطيرة، يعد العلماء كشفها وتقريرها أمرًا عظيمًا . . إن الماء هو مهد الحياة الأول. وهى حقيقة تثير الانتباه حقًا، وإن كان ورودها فى القرآن الكريم لا يثير العجب فى نفوسنا، ولا يزيدنا يقينًا بصدق هذا القرآن، فنحن نستمد الاعتقاد بصدقه المطلق فى كل ما يقرره من إيماننا بأنه من عند الله، لا من موافقة النظريات أو الكشوف العلمية له، ومنذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا كان القرآن الكريم يوجه أنظار الكفار إلى عجائب صنع الله فى الكون، ويستنكر ألا يؤمنوا بها وهم يرونها مبثوثة فى الوجود : أفلا يؤمنون؟ وكل ما حولهم فى الكون يقود إلى الإيمان بالخالق المدبر الحكيم».

(١) أحمد فى «مسنده» (٢/ ٤٩٣ : حديث ١٠٣٤٩).

* وجاء فى صفوة البيان لمعانى القرآن - رحم الله مؤلفه - ما نصه: « ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ خلقنا من الماء كل شىء حى، أى متصف بالحياة الحقيقية وهو الحيوان، أو كل شىء نام فيدخل النبات، ويراد من الحياة ما يشمل النمو. وهذا العام مخصوص بما سوى الملائكة والجن مما هو حى».

* وذكر أصحاب المنتخب فى تفسير القرآن الكريم - جزاهم الله خيراً - ما نصه: «أعمى الذين كفروا، ولم يبصروا . . . . ، وجعلنا من الماء الذى لا حياة فيه كل شىء حى؟ ! فهل بعد كل هذا يعرضون، فلا يؤمنون بأنه لا إله إلا الله؟ !».

وجاء بالهامش هذا التعليق: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾: «تقرر هذه الآية حقيقة علمية أثبتها أكثر من فرع من فروع العلم، فقد أثبت علم الخلية أن الماء هو المكون المهم فى تركيب مادة الخلية، وهى وحدة البناء فى كل كائن حى نباتًا كان أو حيوانًا، وأثبت علم الكيمياء الحيوية أن الماء لازم لحدوث جميع التفاعلات والتحولات التى تتم داخل أجسام الأحياء، فهو إما وسط، أو عامل مساعد، أو داخل فى التفاعل، أو ناتج عنه. وأثبت علم وظائف الأعضاء أن الماء ضرورى لقيام كل عضو بوظائفه التى بدونها لا تتوافر له مظاهر الحياة ومقوماتها».

* وجاء فى صفوة التفاسير - جزى الله كاتبها خيراً - ما نصه: «﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أى جعلنا الماء أصل كل الأحياء وسببًا للحياة، فلا يعيش بدونه إنسان ولا حيوان ولا نبات ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: أفلا يصدقون بقدرة الله؟».

## الماء فى اللغة العربية وفى القرآن الكريم

الماء سائل شفاف تقوم عليه الحياة، وهو فى نقائه لا لون له، ولا طعم ولا رائحة، وقد وهبه الله - تعالى - من الصفات الطبيعية والكيميائية ما يمكنه من القيام بدوره الأساسى فى أجساد كل صور الحياة.

والهمزة فى اسمه مبدلة من الهاء لأن أصله (موه) وجمعه (أمواه) فى القلة، و(مياه) فى الكثرة، وتصغيره (مويه)، والنسبة إلى (ماء) هى ( مائى ) أو (ماوى).

ولفظة (ماء) وردت فى القرآن الكريم ثلاثا وستين مرة، وهى لفظة تدل على الجمع والمفرد معًا ـ فتقول ماء البحر كما تقول قطرة ماء ـ وذلك لأن (ماء) اسم جنس إفرادى: قليله وكثيره سواء من مثل لفظة (زيت).

ومن هذه المرات الثلاث والستين والتى جاءت ـ فى معظمها ـ بمعنى السائل المعروف الذى يشربه كلٌّ من الإنسان والحيوان، ويروى به النبات، جاءت لفظة (ماء) فى القرآن الكريم أربع مرات بمعنى النطفة ـ أى: ماء التناسل ـ كما جاءت كلمة (ماء) تسعًا وخمسين مرة غير متصلة بضمير، وأربع مرات متصلة بضمير من الضمائر.

وهذه المرات الثلاث والستون التى جاء فيها ذكر لفظة (ماء) أو (الماء) فى كتاب الله (فى إحدى وستين آية مباركة ورد فى اثنتين منها ذكر الماء مرتين) يمكن تصنيفها فى المجموعات العشر التالية:

**أولاً**: آية واحدة تدل على أن عرش الله ـ تعالى ـ كان على الماء (هود: ٧)، وعرش الله ـ تعالى ـ من أمور الغيب المطلق الذى لا يستطيع العلم المكتسب أن يقول فيه شيئًا.

**ثانيًا**: آية واحدة تدل على أن أصل ماء الأرض كله من داخل الأرض (النازعات: ٣١).

**ثالثًا**: آيتان كريمتان تثبتان أن الله ـ تعالى ـ قد خلق كل شىء من الماء (الأنبياء: ٣٠)، (النور: ٤٥).

**رابعًا**: ثمان وعشرون آية كريمة تصف دورة الماء حول الأرض بإنزاله من السماء، وتصريف الرياح وتسخير السحاب فى تلك الدورة التى جعلها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ لتطهير ماء الأرض، ولسقيا كلّ من الإنسان والحيوان وإنبات مختلف أنواع النباتات وريها بانتظام (البقرة: ٢٢، ١٦٤؛ الأنعام: ٩٩؛ الأعراف: ٥٧؛ الأنفال: ١١؛ الرعد: ٤، ١٧؛ إبراهيم: ٣٢؛ الحجر: ٢٢؛ النحل: ١٠، ٦٥؛ طه: ٥٣؛ الحج: ٥، ٦٣؛ الفرقان: ٤٨؛ النمل: ٦٠؛

العنكبوت : ٦٣ ؛ الروم : ٢٤ ؛ لقمان : ١٠ ؛ السجدة : ٢٧ ؛ فاطر : ٢٧ ؛ فصلت : ٣٩ ؛ الزخرف : ١١ ؛ ق : ٩ ؛ الواقعة : ٦٩ ؛ المرسلات : ٢٧ ؛ النبأ : ١٤ ؛ عبس : ٢٥ ).

**خامسًا** : خمس آيات تصف خزن ماء المطر تحت سطح الأرض بتدبير من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وتقدير حكيم منه (البقرة : ٧٤ ، الكهف : ٤١ ، المؤمنون : ١٨ ، الزمر : ٢١ ، الملك : ٣٠ ، وقد ذكر فيها الماء مرتين ).

**سادسًا** : ثمانى آيات مباركات تشير إلى ماء له علاقة بأحداث تاريخية (هود : ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ والقصص : ٢٣ والقمر : ١١ ، ١٢ ، ٢٨ والحاقة : ١١ ).

**سابعًا** : آيتان كريمتان تشيران إلى التيمم فى غيبة وجود الماء (النساء : ٤٣ ، المائدة : ٦ ).

**ثامنًا** : خمس آيات مباركات تذكر الماء فى الآخرة إما فى الجنة أو فى النار (الأعراف : ٥٠ ، إبراهيم : ١٦ ، الكهف : ٢٩ ، محمد : ١٥ وقد أشير فيها إلى الماء مرتان ، الواقعة : ٣١ ).

**تاسعًا** : خمس آيات كريمات استخدمت للتشبيه أو لضرب المثل (يونس : ٢٤ ، الرعد : ١٤ ، الكهف : ٤٥ ، النور : ٣٩ ، الجن : ١٦ ).

**عاشرًا** : أربع آيات تشير بالماء إلى النطف ، أى إلى ماء التناسل ( الفرقان : ٥٤ ، السجدة : ٨ ، المرسلات : ٢٠ ، الطارق : ٦ ).

## من الدلالات العلمية للآية الكريمة

من الدلالات العلمية التى يمكن استخلاصها من قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٠] ما يلى :

**أولاً** : أن الماء سابق فى وجوده على جميع الخلائق ، فقد أثبتت دراسات علوم الأرض أن هذا الكوكب يرجع عمره إلى أكثر من ٦ , ٤ بليون سنة ، بينما يرجع عمر أقدم أثر للحياة فى صخور الأرض إلى ٨ , ٣ بليون سنة ، وهذا يعنى أن عملية إعداد الأرض لاستقبال الحياة استغرقت أكثر من ثمانمائة مليون سنة وربنا ـ تبارك وتعالى ـ قادر على أن يقول للشىء كن فيكون ، **وإنما جاء الخلق على مراحل**

متطاولة من الزمن بهدف إعانة الإنسان على تتبع سنن الله فى الأرض، وعلى حسن توظيفها فى عمارة الحياة؛ لأن كلاً من الزمان والمكان إذا كان من أبعاد المادة، وحدود الإنسان، فهو من خلق الله، والمخلوق لا يحد الخالق أبدًا ... فالله ـ تعالى ـ فوق جميع خلقه بما فى ذلك المادة والطاقة والزمان والمكان.

وخلال هذه الفترة الطويلة من إعداد الأرض لاستقبال الحياة، فجّر الله ـ تعالى ـ الأرض بالثورات البركانية التى أخرجت كلاً من أغلفة الأرض الصخرية، والمائية، والغازية، كما كوّنت السلاسل الجبلية، التى اندفعت من قاع المحيط الأولى الغامر للأرض، وشكلت أعلى قمة فى هذه السلاسل الجبلية ارتفعت فوق مستوى سطح الماء أول يابسة ظهرت من الغلاف الصخرى للأرض، وكانت هى أرض مكة المكرمة، وظلت هذه اليابسة فى النمو حتى تكونت القارة الأم التى قسمها الله ـ تعالى ـ بعد ذلك بالتصدع إلى سبع قارات بدأت تنزاح متباعدة عن بعضها البعض حتى وصلت إلى مواقعها الحالية ولا تزال فى حركة مستمرة إلى اليوم، وبهذا تهيأ كوكبنا ليكون محضنًا صالحًا للحياة الأرضية.

**ثانيًا** : أن الله ـ تعالى ـ خلق كل صور الحياة الأرضية الباكرة فى الماء؛ لأن الأوساط المائية فى بدء خلق الأرض كانت أنسب البيئات لاستقبال الحياة، ودراسات بقايا الحياة فى صخور الأرض تشير إلى أن الحياة المائية استمرت وحدها قرابة ٣٣٦٠ مليون سنة (فى الفترة من ٣٨٠٠ مليون سنة مضت إلى ٤٤٠ مليون سنة مضت حين وجد أقدم بقايا للنباتات الأرضية التي نمت على اليابسة.

**ثالثًا** : كذلك أثبتت دراسات علوم الأرض أن خلق النبات كان دومًا سابقًا لخلق الحيوان، وأن عملية الخلق قد توجها الله ـ تعالى ـ بخلق الإنسان، وعلى ذلك فإن خلق النباتات البحرية كان سابقًا لخلق الحيوانات البحرية، وكذلك خلق النباتات الأرضية على اليابسة كان سابقًا لخلق الحيوانات على اليابسة، وكل ذلك كان سابقًا لخلق الإنسان وهو المخلوق الذى كرمه الله ـ سبحانه وتعالى ـ فقال عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

والحكمة من ذلك جلية، بينة واضحة؛ لأن الإنسان يعتمد فى غذائه على كلٍّ من النبات والحيوان. **ولأن كلاً من الإنسان والحيوان يعتمد فى غذائه على النبات،**

**ولأن النباتات لعبت ـ ولا تزال تلعب ـ الدور الرئيسى فى إمداد الغلاف الغازى للأرض بالأكسچين الذى بدونه ما كانت حياة أى من الإنسان أو الحيوان ممكنة...!!**

يضاف إلى ذلك أن النبات الأخضر هو المصنع الربانى الذى تتخلق فيه الجزيئات العضوية اللازمة لبناء أجساد كل صور الحياة النباتية والحيوانية والإنسية، وذلك بواسطة الماء المرتفع مع العصارة الغذائية المستمدة من الأرض، وثانى أكسيد الكربون المستمد من الغلاف الغازى للأرض، والطاقة المستمدة من الشمس. وعملية التمثيل الضوئى فى النباتات الخضراء لا تتم فى غيبة الماء، الذى يتكون كل جزىء فيه من ذرتى أيدروچين، وذرة أكسچين واحدة، والنبات يستمد الماء من العصارة الغذائية التى تمتصها جذوره من تربة وصخور الأرض، ويستمد الطاقة من ضوء الشمس بواسطة الصبغة الخضراء المعروفة باسم «اليخضور»، والتى أودعها الله ـ تعالى ـ فى خلايا النبات وأعطاها القدرة على تحليل جزىء الماء إلى أيون من الأيدروچين يحمل شحنة كهربائية موجبة، وأيون آخر من الإيدروكسيد يحمل شحنة كهربائية سالبة، وباتحاد كل اثنين من أيونات الإيدروكسيد يتكون جزىء من الماء وذرة من ذرات الأكسچين الذى ينطلق إلى الغلاف الغازى للأرض لتعويض ما تستهلكه بقية الكائنات الحية من هذا الغاز الضرورى للحياة عن طريق التنفس.

وتتحد أيونات الأيدروچين الناتجة عن عملية تحلل الماء مع جزيئات ثانى أكسيد الكربون الذى يستمده النبات من الجو المحيط به ليكوّن جميع أنواع الجزيئات العضوية اللازمة لبناء الخلايا الحية، مبتدئًا بأبسطها، وهو سكر العنب (الجلوكوز) وغيره من أنواع السكر الأخرى، والنشويات (الكربوهيدرات)، منتهيًا إلى البروتينات، والزيوت، والدهون، وغير ذلك من مركبات الأحماض الأمينية، والأحماض النووية التى تكتب بها الشفرة الوراثية لكل كائن حى.

وبهذه العملية يختزن جزء من طاقة الشمس على هيئة روابط كيميائية تلعب الدور الرئيسى فيها أيونات الأيدروچين الموجودة فى الماء، بينما يستخدم الأكسچين المنطلق من الماء إلى الجو عن طريق عملية التمثيل الضوئى بواسطة بقية الكائنات الحية فى عملية التنفس، وهى عملية ينتج عنها أكسدة المواد العضوية فى الطعام (والمأخوذة أصلاً من النبات مباشرة أو بطريقة غير مباشرة عن طريق الحيوان) إلى ثانى أكسيد كربون وماء، وبذلك يسترجع الغلاف الغازى للأرض ثانى أكسيد

الكربون الذى أخذه منه النبات، كما يسترجع قدراً من طاقة الشمس التى استفاد بها النبات على شكل حرارة ناتجة عن جميع الأنشطة التى تقوم بها الكائنات الحية، أو تتركها على هيئة بقايا وفضلات تتأكسد وتعود هى الأخرى إلى الجو.

من هنا يتضح أن الماء ضرورى لبناء أجساد كل الكائنات الحية، كما أنه ضرورى لمساعدتها على الاستمرار فى القيام بمختلف نشاطاتها ومظاهرها الحيوية.

**رابعًا**: أن الماء أعظم مذيب يعرفه الإنسان، ولذلك يشكل الوسط المذيب للعديد من العناصر والمركبات التى يقوم بنقلها من تربة وصخور الأرض إلى مختلف أجزاء النبات، ومن الطعام إلى مختلف أجزاء جسم كل من الإنسان والحيوان. وذلك بما له من درجة عالية من اللزوجة والتوتر السطحى، وخاصية شعرية فائقة.

**خامسًا**: أن الماء يشكل العنصر الأساسى فى بناء أجساد جميع الكائنات الحية، فقد ثبت بالتحليل أن نسبة الماء فى جسم الإنسان تتراوح بين حوالى ٦٠٪ و٧٢٪ فى الطفل، وبين ٥٤٪ و٦٢٪ فى الإنسان البالغ، وحوالى ٩٣٪ فى الجنين ذى الأشهر المحدودة، بينما يكون الماء أكثر من ٨٠٪ من تركيب دم الإنسان، وأكثر من ٩٠٪ من أجساد العديد من النباتات والحيوانات.

**سادسًا**: أن جميع الأنشطة الحياتية وتفاعلاتها المتعددة من التغذية إلى الإخراج ومن النمو إلى التكاثر لا تتم فى غيبة الماء، بدءًا من التمثيل الغذائى، وتبادل المحاليل بين الخلايا وبعضها البعض، وبينها وبين المسافات الفاصلة للخلايا، وذلك بواسطة الخاصية الشعرية للمحاليل المائية التى تعمل من خلال جدر الخلايا، وانتهاء ببناء الخلايا والأنسجة الجديدة مما يعين على النمو والتكاثر، وقبل ذلك وبعده التخلص من سموم الجسم وفضلاته عن طريق مختلف صور الإفرازات والإخراجات.

هذا بالإضافة إلى ما يقوم به الماء من أدوار أساسية فى عمليات بلع الطعام، وهضمه، وتمثيله، ونقله، وتوزيعه، ونقل كلّ من الڤيتامينات، والهرمونات، وعناصر المناعة، ونقل الأكسچين إلى جميع أجزاء الجسم، وإخراج السموم والنفايات إلى خارج الجسم، وحفظ حرارة الجسم ورطوبته وما يقدم ذلك أو يترتب عليه من العمليات الحيوية، وعلى ذلك فلا يمكن للحياة أن تقوم بغير الماء

أبدًا، فمن الكائنات الحية ما يمكنه الاستغناء كلية عن أكسجين الهواء، ولكن لا يوجد كائن حي واحد يمكنه الاستغناء عن الماء كلية، فبالإضافة إلى منفعه العديدة وفى مقدمتها أنه منظم لدرجة حرارة الجسم، بما له من سعة حرارية كبيرة، ومنظم لضغط الدم، ولدرجات الحموضة، فإن في نقصه تعطش الخلايا ويضطرب عملها، وتتيبس الأنسجة، وتتلاصق المفاصل، ويتجلط الدم ويتخثر، ويوشك الكائن الحي على الهلاك. ولذلك فإن أعراض نقص الماء بالجسم الحي خطيرة للغاية، فإذا فقد الإنسان على سبيل المثال ١٪ من ماء جسده أحس بالظمأ، وإذا ارتفعت نسبة فقد الماء إلى ٥٪ جف حلقه ولسانه، وصعب نطقه، وتغضن جلده، وأصيب بانهيار تام، فإذا زادت النسبة المفقودة على ١٠٪ أشرف الإنسان على الهلاك بالموت.

وفى المقابل فإن الزيادة فى نسبة الماء بجسم الكائن الحى عن القدر المناسب له قد تقتله، فالزيادة فى نسبة الماء بجسم الإنسان قد تسبب الغثيان، والضعف العام وتنتهى بالغيبوبة التى تفضى إلى الموت.

سابعًا: يغطى الماء فى زماننا الراهن حوالى ٧١٪ من مساحة سطح الأرض المقدرة بنحو ٥١٠ ملايين كيلومتر مربع، بينما تشغل مساحة اليابسة حوالى ٢٩٪ من تلك المساحة. والأرض هى أغنى كواكب المجموعة الشمسية بالماء الذى تقدر كميته على السطح بحوالى ١,٤ بليون كيلومتر مكعب، بالإضافة إلى مخزون يقدر بمئات أضعاف هذا الرقم فى نطاق الضعف الأرضى، يخرجه لنا ربنا - تبارك وتعالى - بقدر معلوم مع ثورات البراكين.

ويتوزع أغلب الماء على سطح الأرض (حوالى ٢٢, ٩٧٪) فى البحار والمحيطات التى تغطى مساحة تزيد على ٣٦٢ مليون كيلومتر مربع، بمتوسط عمق يقدر بحوالى ٣٨٠٠ متر مما يعطى لبحار ومحيطات الأرض حجمًا يزيد قليلاً على ١٣٧٥ مليون كيلومتر مكعب من الماء المالح.

هذا بالإضافة إلى كم من الجليد يغطى قطبى الأرض، وقمم الجبال بسمك يصل إلى أربعة كيلومترات فى القطب الجنوبى وإلى ٣٨٠٠ متر فى القطب الشمالى، ويمثل كم الماء فى هذا الغطاء الجليدى حوالى (١٥, ٢٪) من مجموع الماء على سطح الأرض، والنسبة الباقية وتقدر بحوالى (٦٣, ٠٪) من مجموع ماء الأرض يمثل

أغلبها بالمخزون المائى فى صخور قشرة الأرض ما نسبته (٦١٣ , ٠٪) ويمثل الباقى (وتقدر نسبته بحوالى ٠١٧ , ٠٪) بمخزون البحيرات الداخلية، وكم الماء الجارى فى الأنهار والجداول، ورطوبة كل من الجو والتربة، التى تعين الأرض على الإنبات، وتلعب دوراً مهمًا فى تكوين السحب التى تدفع عن الأرض جزءًا كبيراً من حرارة وأشعات الشمس بالنهار، كما ترد إلى الأرض معظم الدفء الذى تشعه صخورها إلى الجو بمجرد غياب الشمس.

وهذا التوزيع المعجز للماء على سطح الأرض لعب - ولا يزال يلعب - دوراً أساسيا فى تهيئة مناخ الأرض لاستقبال الحياة، فلولا هذه المساحات المائية والجليدية الشاسعة لاستحالت الحياة التى نعرفها على سطح الأرض؛ لأن درجة حرارة نطاق المناخ كان من الممكن أن تصل إلى أكثر من مائة درجة مئوية بالنهار، وأن تنخفض إلى ما دون المائة درجة تحت الصفر المئوى بالليل، وهو تباين لا تقوى عليه كل صور الحياة المعروفة لنا، ولكن شاءت إرادة الله ورحمته أن تحمينا من هذه المخاطر بواسطة الغلاف المائى للأرض الذى ينظم درجة حرارتها، وحرارة الهواء المحيط بها فى نطاق المناخ، وذلك بتكرار عمليات التبخير بكميات كبيرة من الماء (تقدر سنويًا بحوالى ٠٠٠ , ٣٨٠ كيلومتر مكعب)، وتكثيف هذا الكم الهائل من بخار الماء على هيئات السحاب والضباب والندى، وإنزاله إلى الأرض على هيئة المطر، والثلج والبرد، وما يصاحب ذلك من رعد وبرق، وما ينزل معهما من مركبات النيتروجين وغيره من العناصر التى تثرى تربة الأرض بما يحتاجه النبات من مركبات، وما يصاحب كل ذلك من إحياء للأرض بعد موتها، بتقدير من الخالق البارئ المصور ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢ - ٣].

**ثامنًا**: الماء يساعد على حفظ درجات الحرارة فى البحار والمحيطات فى الحدود التى تعين الحياة البحرية على النشاط، وذلك باختلاط التيارات البحرية الدافئة والباردة، وبامتصاص جزء كبير من أشعة الشمس وبما تنتجه الأحياء البحرية من حرارة نتيجة لمختلف أنشطتها الحيوية، والعمل على إعادة توزيعها، وكذلك توزيع الحرارة الناتجة عن ثورات البراكين فوق قيعان كل محيطات الأرض، وقيعان أعداد من بحارها، وقبل ذلك وبعده وقاية الأحياء البحرية من مختلف التقلبات الجوية خاصة عندما تنخفض درجات الحرارة إلى ما دون الصفر المئوى، وهنا يلحظ كل

عاقل دور القدرة الإلهية المبدعة فى الخلق والتى أعطت الماء عدداً من الخصائص الفيزيائية والكيميائية التى لا تتوافر لغيره من العناصر ومركباتها، وأبرزها قلة كثافة الماء عند تجمده مما يضطره إلى الطفو على سطح مياه البحار والمحيطات فى المناطق الباردة والمتجمدة بدلاً من الغوص إلى قيعانها والقضاء على مختلف صور الحياة فيها، ويقوم الجليد الطافى على سطح الماء بدور العازل بين درجات حرارة الهواء الشديد البرودة من فوقه، والماء الدافئ نسبيًا من تحته وما فيه من حياة زاخرة.

**هذا قليل من كثير مما حبا الله ـ تعالى ـ به الماء من صفات طبيعية وكيميائية فريدة، من أهمها قدرته الفائقة على إذابة أعداد كبيرة من المواد الصلبة والسائلة والغازية، وبناؤه الجزيئى ذو القطبية المزدوجة والمقاوم للتحلل والتأين، ودرجتا التجمد والغليان المتميزتان، والحرارة النوعية المرتفعة، والحرارة الكامنة العالية، واللزوجة والتوتر السطحى الفائقان، وقلة كثافته عند التجمد، وقدرته الكبيرة على الأكسدة والاختزال، وعلى التفاعل مع العديد من المركبات الكيميائية، وعلى تصدع التربة وشقها لمساعدتها على الإنبات،وبذلك هيأه الله ـ سبحانه وتعالى ـ للقيام بدوره الرئيسى فى أجساد كل أنواع الحياة النباتية والحيوانية والإنسية مما يعتبر معجزة كبرى من معجزات الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ الذى أنزل فى محكم كتابه من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق : ﴿ ... وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾** وجاء ذلك مباشرة بعد تقرير خلق السماوات والأرض بعملية فتق الرتق وهى من أعظم معجزات الخالق ـ سبحانه ـ فى إبداعه للكون. والخطاب فى مطلع الآية الكريمة موجه للذين كفروا، ولذلك ختمت بهذا الاستفهام التقريرى، التقريعى، التوبيخى : ﴿ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾ ؟.

وهذه حقائق لم يصل إليها علم الإنسان إلا فى منتصف القرن العشرين، وورودها فى كتاب الله بهذه الدقة العلمية المبهرة، والإيجاز المعجز، مع الشمول والإحاطة لما يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة والرسالة للنبى والرسول الخاتم الذى تلقاه، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

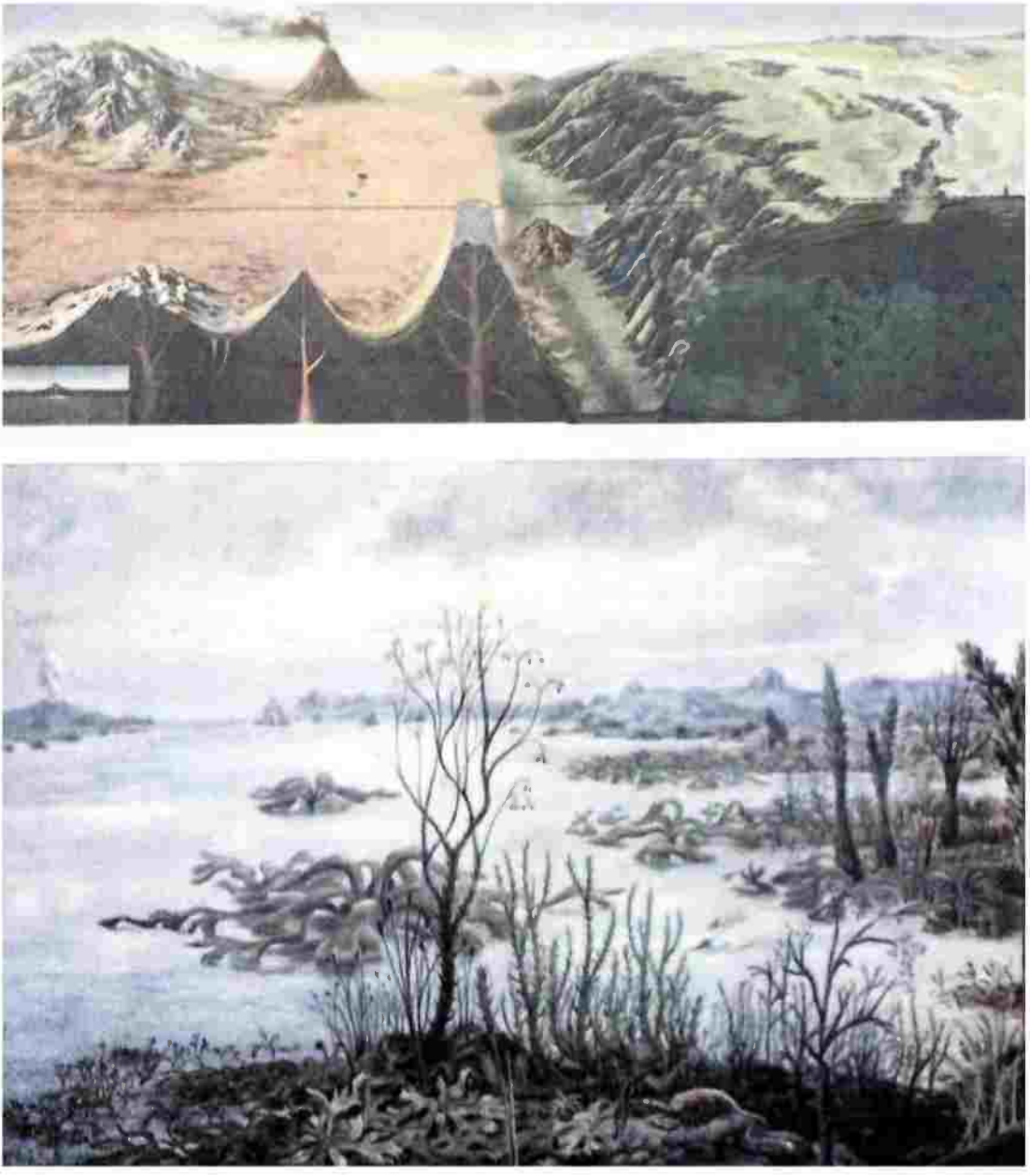

رسم تخطيطى لبعض أنواع النباتات الأرضية الأولية التى خلقت على سطح اليابسة لأول مرة مع بدايات العصر السيليورى (فى الفترة من ٤٤٠ مليون سنة مضت إلى ٤١٠ مليون سنة مضت).